سير الزمان

شؤون العالم
عام ١٩٣٩

سمعتها من شفتيه

لمرمن روشتج
رئيس مجلس شيوخ دانتزج سابقاً

[نشرع في الجزء القادم من المقتطف في
نشر فصول في تاريخ الحرب العالمية الثانية]

شؤون العالم[1]

عام ١٩٣٩

كما مرت سنة أخرى من سني حياتنا بالزوال تعود بي الذاكرة قسراً الى عهد الطلب، فتردد في ذهني أبيات بديعة الشعور، محكمة السياق، لشاعر العرش البريطاني العظيم الفريد لورد تنيسون في قصيدته «الذكرى». وهي أبيات يودع بها الشاعر العام الماضي الى مكانه في جوف الزمان، ويستقبل العام الجديد. وقد ترددت بعض هذه الابيات في ذهني طوال امس حتى أويت الى مضجعي، ثم في فجر هذا الصباح، فعدت اليها وقرأتها فكأن شاعر النصف الثاني من القرن التاسع عشر في اللغة الانكليزية، كتبها لنا وليومنا هذا لانها تعبر تعبيراً دقيقاً صادقاً عما تعانيه الانسانية من المشكلات وهي واقفة على حافة عام ستودعه بعد ثلاث ساعات لتستقبل عاماً جديداً يلفه الغموض وتحف به المخاوف والآمال من جانبيه

وعما يقوله الشاعر في نشيده: «اقرعي أيتها الاجراس، وابعدي عنا البالي البرئيك، وقربي الينا الجديد الحي، ابعدي النزاع بين الغني والفقير، وقربي الاصلاح والانصاف الى الانسانية. ابعدي الفخر الكاذب بالمكان والدم وقربي المحبة الصادقة للحق والخير. ابعدي الفاً من الحروب القديمة وقربي الف سنة من السلام، قربي الرجل الحر الشجاع السماح، والقلب العطوف واليد الكريمة»

هذه هي بعض المعاني التي تتردد في نشيد تنيسون وهي في حلتها الشعرية الفاخرة باللغة الانكليزية، تجمع بين نبل المعنى ونبل الموسيقى الشعرية في وحدة لا تنفصم الا ويخسر القصيد روعته. ولكني اكتفيت بنقل بعض المعاني، لانها تعبر تعبيراً دقيقاً عما يضطرب في نفس كل محب للخير والانسانية ونحن واقفون على عتبة عام جديد

ولست أدري، عند ما ارتد بالفكر الى حوادث العام الماضي، أية الحوادث أقدم على الاخرى تأثيراً وخطر شأن. ففي وسع الباحث ان يقيم الحجة، على ان اكتساح المانيا لتشيكوسلوفاكيا في منتصف مارس سنة ١٩٣٩ كان تلك الحادثة الفاصلة، او خروج بريطانيا العظمى عن سياستها التقليدية القائمة على حصر التزاماتها على بر اوربا الى توسيع نطاق هذه الالتزامات وفقاً لما يقتضيه حفظ الكيان من ناحية ومصلحة الحضارة العليا من ناحية أخرى، فعقدت محالفتها مع بولندة وأعلنت ضمانها لرومانيا وتركيا واليونان ثم أيدت ذلك باقرار التجنيد الالزامي. أو قد يقيم الحجة على ان ذلك الحادث الحاسم هو انقلاب النازية بعد ست سنوات من التنديد بالشيوعية الدولية الملوثة أيدي سفاحيها بالدماء» الى الاتفاق معهم بغية تأييد مصلحة مشتركة؛ او اكتساح بولندة وانقسامها واعلان الحرب في ٣ سبتمبر ١٩٣٩. كل حادثة من هذه الحوادث، لها

(١) حديث لرئيس تحرير المقتطف اذيع في الساعة التاسعة من مساء ٣١ ديسمبر ١٩٣٩

خطرها ، وفي وسع الباحث ان يبين ما كان لها من أثر عظيم ، ولكنني عندما استعين بالخيال وأنظر الى هذا العام الآخذ في الزوال ، من شرفة التاريخ بعد خمسين سنة مثلاً ، يلوح لي أن عام ١٩٣٩ سيذكر بشيء أعم من مجرد حادثة سياسية او حربية ، وأعمق أثراً ، سيذكر في رأيي الضعيف بأنهُ العام الذي قررت فيه طائفة من الدول حمل السلاح لحماية القواعد التي أثبت اختبار البشر في خلال ألوف من السنين ، انها قواعد الحضارة التي تعلي من شأن الكرامة الانسانية ، وتفسح في النظام الانساني والكوني مكاناً لروحه . فالحرب التي لعلي رزايها الآن هي « حرب الخلاص من الشر » ، هي حرب لو كان تيسون حيًّا الآن لقال فيها ما قاله في منتصف القرن الماضي : « ابعدي ايتها الاجراس الفخر الكاذب بالمكان والدم ، وقربي الجبة الصادقة للحق والخير »، ولتأتي هذا الرأي أقوى سند وأبلغ تأييد من كلام جيردينو جليل كقداسة البابا، أو زعيم زمني كبير كالمستر روزفلت . ان طريق الخلاص للانسانية لا يكون الاَّ بالعودة الى النظام يقام فيه العرش الأعلى للمعاني الدينية وما يبنى عليها من الخلق الكريم . فهي ليست في صميمها حرباً على حدود ومنافع، وانما هي حرب على « كيف يعيش الناس وراء حدودهم وكيف يستغنون بمنافعهم »

اهلت سنة ١٩٣٩ وعلى الافق الدولي المفكر غيمة قاتمة ، يرتد قتامها الى اتفاق ميونخ . في الفترة السابقة لذلك الاتفاق حاول الفهر هتلر ان يستغل شعور الاحرار في البلدان الدمقراطية ، باصراره على ان كل غرضه من سياسته انما هو اصلاح خطأ واقع ودفع جور مقيم . وفي الوقت نفسه استغل شعور جماعات المحافظين بقوله انهُ صدَّ الشيوعية عن الانتشار في المانيا ومنها الى سائر اوربا . فلما عقد اتفاق ميونخ ظن بعضهم ان اوربا قد تفادت الحرب، ولكنهم اخطأوا الظن ، لأن الهدف الأبعد لجماعة الوطنيين الاشتراكيين في المانيا ، ليس توسعاً محدوداً في مناطق تقطنها اكثرية المانية ، بل هدف اساسه فكرة هدامة لنظام الاجتماعي القائم واقناع بأن للنزعة الجرمانية رسالة تؤديها وهي السيطرة على اوربا ان لم تكن السيطرة على العالم ، وذلك عملاً بقول فيخت الفيلسوف : « ان الألمانيين مفردون في لغتهم وتقاليدهم وثقافتهم فيجب ألاَّ يسمحوا لأنفسهم بأن يلوّثوا بغيرهم ، وليس بينهم وبين سائر الشعوب شيء مشترك واذن فيجب فرض الثقافة الالمانية على العالم »

لذلك لم يكن للعهد الذي قطعه الفهر هتلر للمستر تشمبرلن في جودسبورج — قبل اجتماع ميونخ — ومؤداه ان ارض السوديت هي آخر مطلب جغرافي له في اوربا ، قيمة ما ، ولذلك اكتسح بوهيميا وموراڤيا في مارس ١٩٣٩ وفكك اوصال تشيكوسلوڤاكيا ، وليس فيها اقلية المانية تذكر بعد ضم السوديت ، ثم بعث بانذار الى بولندة مطالباً باعادة دانتزج وبحقوق معينة في الجاز البولندي ، وهي مطالب لو سلم بها اذعاناً وخوفاً ، لقضت من ناحية على الرئة التي

التي تنفس بها بولندة ، ولكانت من ناحية اخرى فوزاً آخر لمبدأ الطغيان والتحكم بالارهاب

وكانت بريطانيا وفرنسا قد ادركتا في خلال ذلك ان كلة الحكومة الالمانية وزعيمها لا تعني اكثر من صوت مخارجها . وقد اثبت الهر روشنج — وقد كان من زعماء النازي ورئيس مجلس شيوخ دانتزج — في كتاب ظهر له من شهر تقريباً ، أن قطع العهود وتبييت النية على الخنث بها قاعدة اساسية في خطة الوطنيين الاشتراكيين . وكان الشعب البريطاني قد سلم بمطالب الهر هتلر الخاصة بالسوديت لاعتقاد سواده بأنها قائمة على مبادىء ليس في الوسع انكارها . فلما خنث الهر هتلر بعهده ، واكتسح تشيكوسلوفاكيا وضم ميمل واندر بولندة ، ادرك سواد الشعب البريطاني حقيقة مطامع النازي ومداها ، فأقبلت حكومة المستر تشمبرلن ، والشعب البريطاني يؤيدها على عقد محالفة عسكرية مع بولندة وضمان سلامة رومانيا واليونان وتركيا وعززت ذلك باقرار التجنيد الالزامي

وكانت روسيا السوفيتية ، في منزلة حجر المقد في كتلة السلام التي انحيت بريطانيا وفرنسا الى انشائها ، فانقضت اشهر وحكومتا لندن وباريس تبذلان جهدها لاشراك موسكو معهما في محالفة كبيرة ، يكون في قوتها ردع لالمانيا النازية ، وحماية للسلام

كانت سياسة روسيا بعد الحرب العالمية الاولى قد تقلبت وفقاً لمصالحها ، فالتزمت العزلة الباهرة اولاً وهاجمت عصبة الامم منهمة اياها بأنها عش الرأسمالية . فلما تقلد اقطاب النازية في المانيا زمام الامور ، وجهروا بوهم في مقاعد الحكم ، بعدائهم للنظام الشيوعي وملأوا الدنيا ظنيناً بأن فضلهم الاول وقاية المانيا وأوربا شرور الشيوعية ، وأعادوا ما ينطوي في اقوال فيلسوفهم روزنبرج من أن شرق أوربا هو مجال التوسع الالماني ، أقبلت روسيا على عصبة الامم وانتظمت فيها وعقدت محالفتين مع فرنسا وتشيكوسلوفاكيا . ولكنها ظلت في خلال ذلك كله ، برمة بما حسبته احجاماً من بريطانيا وفرنسا عن مقاومة اعمال الاعتداء مقاومة حازمة فعالة . فلما عقد مؤتمر ميونخ بغير ان يدعى ممثلها اليه اشتد سخطها . وما بدأت المفاوضات في موسكو بين روسيا من ناحية وبريطانيا وفرنسا من ناحية اخرى حتى اصطدمت بعقبات حالت دون نجاحها . وكان أهم هذه العقبات أن الدولتين الغربيتين أبتا أن تساوما على استقلال دول البلطيق

فكان اصطدام هذه المفاوضات بعقبات فرصة سانحة لهتلر وريبنتروب . ولا يخفى على حضراتكم ان الريخسفهر كان منذ بدء الحكم الهتلري غير راض عن سياسة هتلر الشيفة ضد روسيا . وكان اقطابه يميلون الى التفاهم مع روسيا للفوز ببعض ما تحتاج اليه المانيا من خامات . ولتفي شر الحرب في ميدانين . فلما رأى هتلر وريبنتروب ذلك — وهما النهازان لا يقفان على مبدأ الا مبدأ السلطان — انقلبا على سياسة مقاومة الشيوعية الفوثة بدم الارياء الى الارتماء في احضان اقطابها ،

ولذلك عرف العالم صباح ٢١ اغسطس ان الاتفاق تمّ بين الدولتين

عند ذلك اتضح ان بولندة لا تنجو من المطامع الهتلرية الاّ بالاذعان فأبت ان تذعن وهي تعلم انها ستتحمل الصدمة القوية الاولى، وادركت بريطانيا ان الدفاع عن بولندة مشكلة معقدة شاقة ولكنها كانت قد قطعت عهداً فلا يسعها النكوص ، وعلاوة على ذلك رأت الاتفاق مع دولة تقيم من « القوة الغاشمة » صنماً وتعبده يعرض للضياع كل ما بناه الفلاسفة والشعراء والعلماء من صرح لكرامة الانسان . وجارتها فرنسا في ذلك . وكذلك اعلنت الحرب في يوم ٣ سبتمبر بعد ان اخفقت جميع المساعي التي بذلت لردع هتلر فلم يرتدع

وبعدما انتهت الحرب البولندية بخذلان بولندة واقتسامها بين ماردي الشيوعية والنازية ، عاد هتلر الى عادته المأثورة ، فليس في يده فتاز الجلد الناعم ، بعد ما نزع الحديد الذي كساها به ، وزعم في خطبة لهُ ، انهُ لا يرى سبباً من اسباب الخصام بينهُ وبين دول اوربا الغربية اذا شاءت ان تعقد صلحاً على قواعد يقبلها

ولكن الاسس التي تقوم عليها فلسفة التوسع الوطني الاشتراكي، لا تدع مجالاً للثقة بصدق نية هتلر وصحة ، فروزنبرج فيلسوف الوطنية الاشتراكية يقول « ان السلام الجديد لا يستتب الاّ بسيف عنصر متفوق » . فكل سلام مع جماعة هذا مبدأها لا يكون الاّ هدنة بين حربين

ليس يتسع المقام لبيان اوفى من البيان المتقدم عن أهم حوادث السنة المنسابة الآن الى جوف التاريخ ، ولا يتسع لبيان تامّ من مراحل هذه الحرب في شتى نواحيها من عسكرية اقتصادية وفكرية . ولكن لا يسعني ان أختم هذا الحديث المقتضب من دون الاشارة الى ان العالم قاطبة يخوض الآن معترك حرب طاحنة سواء في ذلك الامم المحاربة والامم المحايدة . وهي حرب يدور رحاها من وراء ميادين القتال في البر والبحر والهواء . لانها تقاتل ضد مبادىء اذا فازت وتحكمت في النفوس ردت مغاني الحضارة اقفاصاً تكل بين قضبانها جيلاً او أجيالاً من الناس يستأثر بهم البغض والتحكم والاستبداد والعدوان . وسواء أخاضت الامم ميادين القتال ، ام التزمت جانب الحياد الحربي فانها لا تستطيع ان تقف بمعزل عن هذه الحرب الروحية الاخرى . ومن هنا يتخذ كلام قداسة البابا المنطوي تلميحاً وتصريحاً ، على استنكار العنف والاعتداء ، معنىً خاصًّا ونحن واقفون على الحد الفاصل بين عامين ، ومن هنا أرى في قول تيسون مخاطباً اجراس العيد : « ابعدي عنا الفخر الكاذب بالمكان والدم وقربي المحبة الصادقة للحق والخير . ابعدي الفاً من الحروب القديمة وقربي الف سنة من السلام » خير ما أتمناه لكم جميعاً وللعالم قاطبة في السنة التي نشرف عليها . فجميع مصائب هذه الحرب لن تكون عبثاً اذا أفضت بنا الى بناء جديد لهذه الفضائل الانسانية وترسيخها في النفوس

سمعتها من شفتيه (١)

أنا اعرف نية الهر هتلر لانني سمعت تفاصيلها من شفتيه . وقد اعترف من سنوات بأن جميع هذه التفاصيل سائرة الى التحقيق ، عند ما وصف احتمال محالفته النورية مع السوفيت ، وخطته لتدمير فرنسا وتفكيك عُرى الامبراطورية البريطانية ، ونيته فيما يتعلق بنصف الكارة الغربي وزحفه على المستعمرات . وكنا نحن المقربين اليه لظن ان هذه اقوال رجل طغى عليه جنون العظمة. ولكن ما بدا مستحيلاً حينئذ قد بدأ يرتسم بأمل التحقيق الآن . لذلك استطيع ان اتصور عواقب النصر الحاسم يحرزه هتلر في هذا النضال ، وفي مقدمتها هدم الاركان التي تقوم عليها صلات الناس بعضهم ببعض . ولا يقتصر الانقلاب على رسم الخارطات والحدود السياسية رسماً جديداً بل يتعداه الى قواعد الاجتماع البشري . ان نجاح الحركة الوطنية الاشتراكية في احداث الثورة العالمية التي تبغيها سيفضي الى تمزيق اوصال الحياة الاجتماعية كما نعرفها فلا يبقى شيء من المعاني التي تسبغ على الحياة معنى كريماً

***

أشرت من نحو سنتين الى خطر عقد محالفة بين المانيا الوطنية الاشتراكية وروسيا البلشفية فهزّ الناس رؤوسهم مرتابين فيما اقول وأشاروا الى اغراض الحركة النازية كما بسطها هتلر في كتابه «كفاحي» وكأنهم كانوا يقولون ألم يرسم هتلر في كتابه هذا ان الشرق الاوربي هو مجال التوسع الالماني ؟ ولكنّ المقربين الى هتلر في العهد الاول من حكمه يعلمون ان غاية هتلر ليست متجهة اولاً الى اوقرانيا او دانتزج او حتى الى المانيا الكبرى وان غايته الاصلية ما فتئت متجهة الى احداث ثورة عالمية تمكنهُ من تنظيم الحياة البشرية على سطح الارض تنظيماً جديداً وفقاً للقواعد والمبادىء التي يراها . أما هل تبتدىء الثورة في الشرق الاوربي او الغرب الاوربي وكيف تسير سيرها بعدئذ فمسائل متصلة باتجاه العوامل السياسية والفرص المتاحة للعمل

إن الشهوة الاصلية في نفس هتلر هي شهوة السلطان والسيطرة . قد يكون اصدق حسًّا وأبرع من سائر المشتغلين بالسياسة في توجيه دفتها واغتنام فرصها ولكنهُ فيما عدا ذلك رجل

---

(١) لهرمن روشنج رئيس مجلس شيوخ دانتزج في السنتين الاولين من الحكم الوطني الاشتراكي وأحد اقطابه وقد نشر اصل هذا الفصل في مجلة مركيوري (عطارد) الاميركية

استولت عليه فكرة واحدة ملكت عليه كل باب من أبواب التفكير والشعور فغدت كالكابوس في حياته . فهو يؤمن بأن العالم انكر على الشعب الالماني حق سيطرته على العالم ويؤمن كذلك ايمان المتعصب المتحمس بأن رسالته انما هي قيادة هذا الشعب الى تلك السيطرة ، ولا يهمه ما يقتضيه منهُ تحقيق هذه الرسالة من تبذير قوة الشعب الالماني وتبديدها . فهو لا يرى الا شيئاً واحداً — اما ان تبقى لنا نحن دولة اوربية محدودة السلطان واما ان تغدو الدولة العالمية المسيطرة على العصر المقبل . فاذا أشرتَ الى عواقب النصر الهتلري ، وبدا للقارىء ان هذه العواقب مبالغ فيها ، فعليه ان يتروّاها في ضوء ما قدمت من حماسة هتلر لما يعتبره رسالتهُ في الحياة

والحرب الحالية في اعتبار هتلر ليست حادثاً نهائيًّا . بل هي واحدة من سلسلة من الحروب والاحداث لن تنجو فيها بقعة من تأثير هذه الحركة الثورية الهدامة . حتى الولايات المتحدة الاميركية ليست في منجى منها . ففي سنة ١٩٣٣ كنت اتناول طعام العشاء مع هتلر وسمعته يبسط آراءه في الولايات المتحدة الاميركية . وكان رأيه ان في تلك البلاد نزاعاً اجتماعيًّا عميقاً فهي على شفا ثورة دامية . ولمح الى ان في قدرته ان يحرك هذه الثورة او يشعل التهاب الاول في نيرانها . وعندئذٍ تغدو عاجزة عن اسداء العون الى دمقراطيات اوربا الغربية

بل ان هتلر ذهب الى أبعد مما تقدم اذ قال ان المهمة الواقعة على عاتق الحركة الوطنية الاشتراكية وزعيمها انما هي تحويل اميركا التي قوامها مجموعة مفككة من السلالات الى أمة صميمة وعندئذٍ يتألف هتلر الملل الذي بدأه وشنطن اي تحويل دمقراطية فاسدة تسيرها الطبقات المتسولة الى دمقراطية شعبية صميمة . وفي الوقت نفسه تطمع اميركا بطابع الخلق الالماني لأن ملايين الالمانيين الذين هاجروا اليها ينظم هذا الانقلاب فيستجيبون الى حاضر اصلهم ودمهم فتغدو اميركا الشمالية دولة المانية متصلة اتصالاً وثيقاً بالامبراطورية الالمانية في اوربا

قد يقول القارىء ان هذا وهمٌ من الاوهام ، ولكنهُ ليس كذلك اذا تضمنهُ من شقي هتلر وللمكسيك مكانة خاصة في خطة الزعيم الالماني ، ذلك ان السر هنري ديتردنج مدير شركة رويال دتش شل كان قد بيَّن له ان بلاد المكسيك من أغنى بلاد الله وان شعبها من اكثر الشعوب ضعفاً وفساداً . وعلى ذلك تصوَّر الفوور ان الهجرة الالمانية الواسعة النطاق الى بلاد المكسيك تفضي حتماً الى تنظيم تلك البلاد تنظيماً جديداً يتقلد فيه الالمانيون لواء الزعامة . ولذلك عني من سنوات بإيفاد كتائب من جنود الهجوم الى المكسيك لكي ينشئوا فيها حرباً نفسية تزيدها بلبلةً وضعفاً داخليًّا

فالذين يعتقدون ان همة هتلر وعنايتهُ متجهتان الى شرق اوربا الجنوبي فقط يخطئون أعظم الخطإ .

وليس انشاء المانيا الكبرى في اوربا والامبراطورية الاوربية الاسيوية الا توطئة وتمهيداً للسيطرة العالمية . اما المانيا الكبرى ، وهي نواة السلطة العالمية ، فقد أنشأها هتلر بغير حرب وساعدته الديمقراطيات الاوربية في ذلك لاعتقاد أقطابها ان الالمان له في بعض الامور قد يحمله على الاكتفاء والتزام خطة الاستقرار والسلام ، فثبت ان هذه الخطة وهم من الاوهام ، لان المانيا الكبرى في اوربا لم تكن النهاية التي تتجه اليها حركة الثورة العالمية الهتلرية بل بدايتها . وما المانيا الكبرى الا القاعدة التي يستند اليها في الدور الثاني من حركته . ومما يبدو للباحث من تقلب في الوسائل والاساليب التي عمد اليها هتلر للفوز في الدور الاول فانه لم يحد قيد شعرة عن هدفه الاصيل وهو انه لا يسع المانيا ان تعيش الا بالسيطرة على اوربا ثم على العالم

* * *

لهذه الامبراطورية النازية طريقان — احدهما يسير الى ضم اوربا المتوسطة وشرقها الجنوبي ثم تفكيك أوصال روسيا . وهي خطة تصورها ووضع قواعدها الجنرال لودندورف . وسبيلها انشاء سلسلة من الدول الصغيرة خاضعة للسيطرة الالمانية — دول البلطيق وبولندة ودول الدانوب والبلقان وكذلك ارقرانيا ومنطقة الفولجا وجورجيا في القوقاس . فتضم جميعاً في اتحاد تكون فيه المانيا الكبرى صاحبة الحول والطول تمسك بزمام الجيش وتوجه السياسة الخارجية وتملي قواعد الحياة الاقتصادية . هذه الخطة هي الخطة المأثورة عن الحركة الوطنية الاشتراكية ، كما تصورها ووضع اصولها الفريد روزنبرج وجوزيف جوبلز وادولف هتلر

الا ان نجاحها التام يقتضي سحق فرنسا في الغرب وضم مقاطعات الالزاس واللورين وبرغندي . ولكن سحق فرنسا وتحويلها الى دولة صغيرة لا حول لها ولا طول في مقاومة اغراض النازي ليس الهدف الوحيد للحركة النازية في غرب اوربا . ذلك انها تنوي ان تنشىء في الغرب اتحاداً على نسق الاتحاد الشرقي تدخل فيه هولندا وبلجيكا وسويسرا والدول الكندينافية والدنمارك والسويد والنرويج فتكون صلات هذه الدول بالمانيا زعيمة الاتحاد شبيهة بصلات دول اوربا الوسطى والشرقية بها . اي ان هذه الدول جميعاً يجب أن تنسى انها دول مستقلة بدخولها في منطقة القيادة او الزعامة الالمانية Befehlsraum . قد تسمح لها المانيا بالاحتفاظ بقسط من الاستقلال الذاتي ، ولكن المانيا الوطنية الاشتراكية وحدها هي التي تعين وتفرض نظمها السياسية والاقتصادية والاجتماعية . ويلحق ذلك ضم المستعمرات الفرنسية والهولندية والبلجيكية الى المانيا

ورأي هتلر انه من المتعذر تحقيق هذه الخطة الواسعة النطاق بضربة واحدة . فعليه ان

يقترب من تحقيقها رويداً رويداً بضربات متوالية فيكفيه في آخر الامران يفوز في حرب واحدة لتحقيقها بحذافيرها

كانت هذه الافكار تشغل ذهن هتلر في السنتين الاولين من الحكم النازي عند ما كانت المانيا تخشى فرض العقوبات عليها او القيام بحرب واقية — كما دعيت حينئذٍ — . ومع ذلك كان ينوي القيام باحد عملين — اما مهاجمة فرنسا اولاً واما الانجاه شرقاً . ولذلك كان السؤال الاول الذي وجّههُ اليَّ عند ما قدمت اليه تقريراً عن حديث دار مع المارشال بلسودسكي — : هل تلتزم بولندة الحياد اذا هاجمت المانيا الغرب؟ ثم بسط لي بعد ذلك اهدافهُ في شرق اوربا وهي أبعد وأوسع نطاقاً مما تقدم ذكرهُ في هذا المقال . وأضاف الى ذلك انهُ يسرهُ ان يتفذ خطتهُ هذه بمساعدة بولندة بدلاً من مقاومتها . وبسط لي خطة كالخطة التي عرضها ريبتروب بعد ذلك على الكولونيل بيك قاعدتها اشتراك المانيا وبولندة في مهاجمة روسيا

ولكن هتلر لهُ خطة اخرى غير الخطة التي تقدم ذكرها . وقاعدتها الأولى السيطرة على اوربا تمهيداً لسيطرة العالمية . الاَّ ان طريقها يختلف كلَّ الاختلاف عن الطريق الاول . وقاعدتها الاساسية هي التحالف مع روسيا بدلاً من النزاع معها . وقد حدثني هتلر حديثاً طويلاً في هذا الموضوع . ومما قالهُ انهُ لا يرى مانعاً ما يحول دون نيل خطته رأساً على عقب بين ليلة وضحاها فيسير مع الروس بدلاً من ان يسير ضدهم

ولا يخفى ان في الحزب الوطني الاشتراكي فريقاً كان منذ نشأة الحزب يوافق على عقد محالفة وثيقة مع روسيا السوفياتية . وكان لهذا الرأي مؤيدون كثر خارج دوائر الحزب بل في الدوائر المعارضة للحزب . وهذه الفكرة مناقضة للمبدإ الاصيل في السياسة الاوربية اي مبدإ الدول القومية التي توالمها الطبقة المتوسطة . اما الفكرة الجديدة فكان أساسها انشاء امبراطورية ضخمة متاصفة سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا ممتدة من البحر الشمالي الى المحيط الهادي . وانشاء هذه الامبراطورية المترامية لا بدَّ منهُ أساساً لانشاء نظام عالمي جديد عن طريق التحالف مع روسيا لا عن طريق الحرب . وذهب مؤيدو هذا الرأي الى انهُ سواء في نظرهم ان تكون هذه الامبراطورية وطنية اشتراكية او بلشفية . فالفروق بين النظامين ليست بذات بال ولا سيما اذا قيست بالمهامّ العظيمة الخاصة بتنظيم العالم تنظيماً اقتصاديًّا واجتماعيًّا جديداً . والغرض الابعد هو هدم النظام الدمقراطي القائم على الاقتصاد الحرّ وحرية الشعوب

ومع ان الهر هتلر لم يأخذ بهذه الآراء الاَّ انهُ لم ينبذها نبذاً باتًّا بل وافق على الدعاية لها بواسطة انصاب في الحزب مثل الهركوخ في بروسيا الشرقية والهر كوفان في هنبورج واحتفظ هو بحقهِ في التحوُّل من خطة الى اخرى وفقاً لما تقتضيهِ الضرورة

ومن الطبيعي ان يسأل القارىء هل الميثاق الالماني الروسي الذي عقد في اغسطس الماضي وما حدث بعده يمثل مرحلة على طريق السيطرة العالمية قاعدتها تحالف الدكتاتوريتين الثوريتين

ان معرفتي بنفسية هتلر معرفة واقية تقضي بأن الردّ على السؤال المتقدم هو بالنفي . فهتلر جريء ولكنه يضمر غير ما يبدي . وما تحالفه مع البولشفية الا تحقيقاً لحاجة عارضة . وعند ما تحين الفرصة المناسبة سينبذ هذه المحالفة كما نقض ميثاقه مع بولندا . ولكنه لا يفعل ذلك على الغالب الا بعد أن يحرز نصراً عسكريًا في الميدان الغربي يمكنه من عزل بريطانيا

أتيح لي ان احدثه مراراً في مسائل تتعلق بخطته نحو روسيا . منها انه اقترح عليّ في سنة ١٩٣٤ أن اذهب الى روسيا واتصل فيها ببعض اقطابها ، مع ان الاتصال بين زعماء الوطنيين الاشتراكيين والسوفيات لم ينقطع البتة . وفي اثناء الحديث بسط هتلر ما يراه من عقد في صلات البلدين الآخر . فتهكم اشد التهكم على البولشفيين فوصفهم بأنهم أبرع من اليهود في الاحتيال والغدر وانهم لا يقنعون الا اذا تسلطوا تسلطاً كاملاً على من يعاملهم . فالتحالف معهم لن يكون تحالفاً بين اندادٍ . فاما الخضوع لهم واما اخضاعهم . ولمّح الى ان التحالف مع روسيا وقد يعرضه لخطر خصم يفوقه قدرة في ميدان السياسة الداخلية . ومع ذلك قال انه مستعد — اذا اضطر — للتحالف معهم اذا كان في ذلك تعزيزاً لموقف المانيا . ولكن تحالفاً من هذا القبيل لن يتم في آخر الامر عن الارتداد الى هدفه الأصيل وهو غزو روسيا وتفكيك أوصالها . فالذي نراه الآن ليس الا ثورة بسيطة . انه عمل مشترك يجني منه الفريقان فائدة ما . ومن ينكر ان روسيا جنت كثيراً من هذا الاتفاق في تعزيز موقفها ازاء المانيا نفسها . واذا قيل ان موقف المانيا ضعف بتوسع روسيا غرباً على سواحل البلطيق . قلنا إن هتلر مستعد للتسليم بهذا ، على اعتبار انه الثمن الذي لا بد منه لظفره في الغرب وذلك بتأمين مؤخرته في الشرق

وقد كان ينوي ان يحقق هذا الغرض باتباع بولندة بعقد محالفة مع المانيا او التزام خطة الحياد ثم يواجه الشرق بعد ظفره في الغرب ، فاذا رسخ قدمه في شمال آسيا — على حساب روسيا — التفت الى غرضه الأبعد وهو هدم الدول الانجلوسكسونية اي الأمبراطورية البريطانية والولايات المتحدة الاميركية وعند تذ يمهد لنفسه الطريق للمرحلة الاخيرة مرحلة السيطرة العالمية

وكثيراً ما اصغيت الى هتلر وهو يبسط الآراء الاجتماعية ولست اعرف حاكماً آخر في العصور الحديثة اشد احتقاراً منه لجمهور الناس . وأذكر انه دار حديث مرة في جماعة من اخص المقربين اليه حول خطة المانيا في الشرق تفسر اهم ما يهمه من الفوز بالمدى الحيوي في الشرق . فاذا هو يبسط النظام الاجتماعي الذي تريده جماعة الوطنيين الاشتراكيين . فقال انه

لا يعرف حضارة تستطيع ان تقوم على اساس غير العبودية . واذن يجب ابداع أشكال جديدة من العبودية. فقد كانت الشعوب المغلوبة وأسرى الحرب عبيداً للفاتحين منذ عصور التاريخ الاولى. أما في المستقبل فالقوميات المغلوبة على امرها يجب ان تكون الطبقة السفلى في الاجتماع الوطني الاشتراكي . وعلى عواتقهم تقع مهنة القيام بالأعمال الصناعية التي لا تحتاج الى اتقان فني . ولا يكون لهم حقوق ما . ثم قال وكأنهُ يخطب في جمع محتشد : يجب علينا ان نجرؤ على الاعتراف بفوائد الأمية . ان العلم والقرية سلاح السيطرة. واذن فيجب ألا يتاحا الا للطوائف المميزة. وفوق طبقة العمال الذين لا يتمتعون بحقوق ما تكون طبقة الألمانيين و حلفائهم ومنهم تستمد المال المتقنين والمديرين وموظفي الحكومات . وفوق هؤلاء تقوم طبقة خاصة من اعضاء الحزب الوطني الاشتراكي ومنهم يجند جيش الثورة . وعلى قمة هذا الهرم الانساني طبقة الأشراف الجدد ، طبقة النخبة الوطنية الاشتراكية وهي طبقة الحكام المتمتعين بالحرية المطلقة واحتكار السلطان

وقد يبدو للقارىء ان هذه الافكار والآراء والخطط في مجموعها متسمة بسمة الوهم ولكنها في الواقع البواعث المحركة للحركة الوطنية الاشتراكية واذا فاز هتلر وصحبه في هذه الحرب فلا ريب في انهم سيحاولون تحقيقها بل انهم بدأوا يحققونها في كل بلد خضع لسيطرتهم . فالنمسكيون والبولنديون عبيد لهم الآن وبجاريهم في ذلك الألمانيون الذين يعارضون الحكم النازي

قال لي مرة : نحن برابرة (Barbarians). فالواجب علينا ان نتغلغل في العالم الديمقراطي الآخذ في الانحلال كما تغلغلت القبائل الجرمانية في الامبراطورية الرومانية القديمة . وفي معمعة الحرب والنزال سنخلق حضارة جديدة. ولا ريب في ان مشيئة جبارة صلبة متعصبة كهذه المشيئة لا تعترف بالسامية أو أدب أو حقوق أصيلة لأحد . قال « يجب ان تكون قساة القلوب » . وهو قول كثيراً ما يردده في دائرة الأخصاء المقربين

***

واذا كان من السهل ان يتصوَّر الباحث ما يفضي اليه ظفر المانيا النازية في هذه الحرب من تنظيم سياسي جديد فليس من السهل مطلقاً ان يتصور المواقب الاجتماعية والادبية ومداها . ان اوربا كثيراً ما زلزلت نظمها الاجتماعية في الماضي ولكنها ردت بخاصيها على أعقابها او ضمتهم وتمثلتهم ولكن الخطر عليها الآن نابع من داخلها وليس بطارىء من الخارج

ان هذه المشيئة مشيئة التدمير تملك من وسائل التدمير ما لا يتصوره العقل . ولكن التدمير المادي لن يكون شيئاً ازاء التدمير الروحي ، عندما تمحى جميع الصور الأدبية للحياة التي ورثناها من نضال الانسان الطويل في خلال العصور